الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب الميدية صراع بين عالمين خاضا غمـــاره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تعبىء له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . امـــا اغريق شبه الجزيرة فقد وعوا وعياً تاماً ان مصيرهم يتقرر فيه. ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار ، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا أولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجداث جدودكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرفي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطحياً فرضه الخطر المداهم مـــا لبث ان تفككت غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عسماء مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليغ ، والثانية تسير قدماً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعلة بقوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقهـا بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية. ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشوائب الداخلية
في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندوحة الحضارة اليونانية

انتهت الحروب اليونانيـــة بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنـــا نحن الذين نستقرىء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن انتصار الفرس ، لو قيّض لهم الانتصار ، ان يجمّد هذا التطور ، لا بفعـل تعسّف يلجأ إليه خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بـل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجـــاء يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البديهية التي كان من الطبيعي ان يوجدها وضع لا يقوى اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس. فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانيـــة المشعّ ؛ وحافظت بعده ، في المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارهـــا أن انطفأت ، بعد ثورتهـــا التي قمعها الفرس بكل شدّة . وسيصبح من المحتم عليهـــا ان تنتظر الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كبلت لهـــا حينذاك . وما كانت اليونان الاوروبية لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاتيا . فإذا كانت ، على الرغم مـــن حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل مـــا كانت ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضفط الفارسي القسم الساحلي الآهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأتاحت

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقـــل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وساندت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ومن ان تفتح ابوابهـا للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربي فـلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توفقت، على الاجمال ، الى ابعـــاد خطر الاعداء عنها . فردّ المستبدّون في سيراكوزا هجوم الساميـين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ وهجوم الاتروريين (الاتروسك *Étrusques*) بعد ذلك بزمن قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسيليا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ،أو ان تعيد تأسيس القديمة منهـا . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصّلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حريةحركاتها واستطاعت،في القرن الخامس،ان تتطور وفاقاً لسنة مصيرها الخاص .

الحرية والتسلط

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بابعاد الخطر الأجنبي، من الشوائب الداخلية . فبعد أن تُرك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدينون الى اتحـــادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات الـتي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر والبونت ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورهم . أما في صقلبا وايطاليـا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قـط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة ومجردة عن الغاية . فهما ، بجرهمـا وراءهما المدن التي يستهويهـا الصراع ، وبتخرير المدن المستعبدة، وبمساندة تلك التي يهددهـــا الاجنبي ، انما استهدفتا جمعها تحت ادارتهما لا بل ، قريباً، تحت امرتهما. فأسستا امبراطوريات ونزعتا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها. فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائـــلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتثاقل ويصعب تحمّلها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافات حول الحدود ، والاحقاد بين الجـيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصميم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه احياناً لخنق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هـذا الخطر . لقد خلا الجوّ لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسّرت هذه الحرية، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتّت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لخضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بوحي احقادها وفي ارواء غليل أطماعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوبونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هانئة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوريبيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم » . وأفضل تعليل في نظري هو انهم يهوون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ » . ولا يصحّ هذا التفسير في البلوبونيزيين فحسب، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهواء النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حدّ بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع.

حالة الحرب حالة طبيعية

كانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة . فمنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثينا اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدّت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذ انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشتى الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار، ان هنالك نزعة عامة مماثلة على الاقل . اجل، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر المجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حربياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا المجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كأداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرّس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسطاً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحرّ . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

الحروب : الاساليب والخسائر بالارواح

لما كان للحرب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ، اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الا نغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن بمكنة اية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التقتيل، اذ ان القتل بحد السيف أو باسلحة الرشق، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضها من جهة ، وعجز الدولة، من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذافون لا عدة لهم ، يجندون من الطبقات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف من المجاذيف يمخر البحر برشاقة ، وقد زوّد في مقدمته « بمهماز » برونزي يحاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو ركاب المركب المبقور في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم. واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف، يتركهم لمصيرهم كل من الهاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنتصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ريح هوجاء ، كثيراً ما تحدث الكارثة حتى للاسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهك بحارته فيذهب طعمة للعناصر الثائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقتل من الحرب البريّة .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد، ووفاقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي، كما تمشت عليه خصوصاً الدولة العسكرية الاولى ، لاكيديمون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة. لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على جبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تخرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولّي المغلوب هارباً، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته. فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرتهم وان يقوم نحو الاموات بالواجبات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موتاه ويحتفل بجنائزهم احتفالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسرته ويلتمس هدنة لجمع موتاه واستلامهم .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قواهم بسهولة، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على الجماعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصَر ، ولكن مؤنه تستنفد ايضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنهـــا بحصيلة غزو الارياف المجاورة . وتنتشر الاوبئة بين الجنود المعسكرين في الهواء الطلق . ويقترب فصل الامطار أو تشق النجدات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الغرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منهـــا عن هذه الوتيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك ايضـــاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة مجند ، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة ، قد استهاتوا باجسامهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحوّلات جذرية سبق وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبـل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفنى ألف هوبليت أثيني من اصـل سبعة آلاف . وتزداد هـــذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في ايام فيليبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعّالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها عـــلى تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتفضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او يمنعونهم على الأقل من جمع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الضخمة المتقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لاول مرة ضد القرطاجيين فأماتت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذاك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افنـــاء قواته المنظمة ايضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغلوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسر الأثينيون ، وكان عددهم عشرة آلاف تقريباً ، ألف قتيـــل وألفي أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاسم يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد اصبحت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يمض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيليبوس ، بعد انتصاره الخاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونانيين بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة ، في حرب هي احدى مراحلهـــا ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كمجموع الى خسائر أكثر فداحة .

الحرب : قانونها وويلاتها

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة . عرف القدماء وطبقوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيليبوس ويزعمون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز ، اقله فيما يعود للأرض ، بقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حاليا . غير ان الملكية في التاريخ القديم تتعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يجدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين. اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فظاعة مثل هذا التقتيل الذي لا يجر اي مغنم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين طريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حق الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادراً ما يطبق قانون الحرب هذا بحذافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة طويلة او غدرت صدر المحاصرين غيظاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثأراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الاقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين ينتظرهم الاستعباد كمصير طبيعي . وليس سوى اقامة السلم ما يتيح لحكومتهم تحريرهم بتبادل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة افتدائهم بالمال . واذا ما فكرنا بفدية الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعلينا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الويلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب الذي يبقى في منأى عن الغزو لا يمنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعوض بصعوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن العجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة المجندة . اما المغانم فالقسم الاكبر منها يبذر تبذيراً ، ويجب ان يقتطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للآلهة الذي يزيد من اهميته ، يوماً بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . ونادراً ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . ولان تصبح الحرب صفقة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مردهرة سلطانها يكنزون الاموال . فسيارحلة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكدس الثروات قط ، وكل ما حققته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جنود جيشها الذين هم مواطنوها ، دون ان يقوموا الى جانب الجندية باي عمل مأجور . ولم تستطع اثينا الديمقراطية ، بعد قيامها ثورة ساموس ، ان تستعيد ما انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . اجل ، قد اتاحت لها قوتها ، من جهة ثانية ، تأسيس امبراطورية غذّت خزانتها وأثرت تجارتها . ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلا .

اما الاراضي التي يجتاحها العدو فتعاني الأمرّين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي ، سوى نهب المحاصيل أو اتلافها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . اما في المدن ، حيث يلتجىء الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاوبئة والحرمانات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباهت بانها تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكترا ، بان يجتاح الطيبيون اريافها الخصبة حيث يحرث الصماليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانها لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتكررة ، تأمين الاستقرار الهانىء لفلاحيها .

التجنيد : مبدأ رواقع

كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربيها ، اقلّه في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينا ، على مكانته كملك المعارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوبليت أبداً الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ، بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي ، كان مقرراً ومعترفاً به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكان من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استلزمت الخدمة المجدية في فرق الهوبليت المشاة تربية عسكرية سابقة و عدّة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوبليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقات الفراغ والبحبوحة معكّنه من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي يوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمّل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدية الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبعه غيرها إلا ببطء ، في التعويض جزئياً ، بجعالة يومية ، عما يتحمله جنودها من نفقات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان اثناء مرحلة تمرينهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت، إلا في حالات الخطر المداهم التي تضطرها الى تعبئة اكبر عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلاً غير مباشر بأن أمنت لمواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعوّ لخدمة وطنه كجنّاف في الاسطول البحري أو كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزوّد بعدّة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت. وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود، الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم ير فيه بعض المعاصرين ، ولا سيما الفنيين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود. فمن الناحية الجسدية ، تخشّن الحياة الريفية اجسامهم وتدربهم على التعب والأسفار الطويلة والعيش المتقشف ، وتتعهد خفتهم بممارسة القنص. ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الاراضي المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالممتلكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشدّ اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفيين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع. « تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقولها تحت رحمة الاقوى ... لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولنقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخلي عن الارياف والمحافظة على الاسوار. في هذه الحال... لا شك في ان الفلاحين يقترعون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يمعن التفكير . كل حضارة مدينة لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنيتها أو مفاهيمها العسكرية بمثال للجندي لا تتردد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط، والفارس بالمشاة السمجين، والابن الضال بأبي العائلة، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه المقابلة مبدأ تسمي وراءه نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في ايامه واقعاً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيهـــا جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحرثون الارض ولا يمارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافيـــاً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيهـــا ، أي الى فلاحيها الاشداء القادرين على التسلح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليـــاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سواعدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلين في المدن اليونانية ، هنا أيضاً ، الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

الثورات الدائمة

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون إثمار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تضم ويلاتها الى ويلات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني باسره حينذاك ، بعد ان مُزق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو تعليل هذه الاستراحة المهيبة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب وبوسائل نجهلها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلهما وترمز اليهما وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البلوبونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عملياً كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بخطورتها واستمرارها وشمولها ، عن نزاعات اجتماعية اكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالاً ، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضا ، استصعب الفقراء حياتهم مـــن جديد فحلموا بالبلبلة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور ، لم يعرف الى الهدوء سبيلا ، لا بل انه ازداد مـــع

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضا . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة ، قد عرفتا سلماً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً ، يجب علينا الا نغرر نفسنا به . اما المعاومات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل ولاستعادة « مناخ » الاهواء الثائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعمد الاحزاب المتخاصمة ـ التي قد تتقاتل احياناً ـ الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي ، اذا لم يكن من عضد غيره ، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يبتسم الحظ ، يعوض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبعها الدولة . ولكنها ، تصبح من الصعوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنت او انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حدّ لها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدوم الحرب الاهلية الى ما لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

العوز والغنى والارتزاق

هدّد الخراب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأود عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طبيعة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يجدّد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معاول وعلة معا ، في خطورة معطيات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة او ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد المخاطرة بحياتهم تأميناً لفسر وريائها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتزاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً ، وعلى نطاق واسع ، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز اطلالته ابان حرب البلوبونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيديمونية ليسوا في الحقيقة سوى طغمات المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعلوماتنا

القليلة لا تسمح لنا بابداء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطىء البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فمما من ريب ان هؤلاء العشرة آلاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فكم بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تعرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنتين ٣٣٤ و ٣٢٨ قد جنّد تحت امرته قرابة ٤٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الجديدة التي أسسها . وخلّف غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقلية وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « الجزل » من مجموع المنفيين لم يمنع ٢٠٠٠٠ مبعد من الاجتماع في أولمبيا في صيف السنة ٣٢٤ حين شاع الخبر بأن أحد موفدي الاسكندر سيذيع فيها امراً صادراً عن الملك وموجهاً لكافة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ان وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم يمنع عن اعراف سياسية قلقة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه أسهم في تعميم الحرب ايضاً ، لأن الحرب اصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجندين مهما كانت جنسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذّت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فأفسدت المنافسة ، التي ألّهها الشاعر القديم هيزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفسدت بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقلوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقائها ، بقدر ما عجلت تقهقرها ، بحرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قط في الكلام عن أهمية الـ « بولس *Polis* » ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب ، بل تعطيها ميزاتها الرئيسية ايضاً. فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بجوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضب نسغها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ – سيادة المدينـــة

المدينـــة *La cité*

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها. فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ « ديموس » . ولم تأت الكتابات الرسمية في يوم من الايام على ذكر « أثينا » أو «لاكيديمون» أو « الجمهورية الأثينية» أو الجمهورية « اللاكيديمونية » ، بل اقتصرت ابداً على « الأثينيين » او « اللاكيديمونيين » ، « مدينة الاثينيـــين » او « شعب الأثينيين » ، « مدينة اللاكيديمونيين » او « شعب اللاكيديمونيين » . فالمفهوم اليوناني ، اذن ، انما يفرض عـــلى وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحدّ اعلى (حتى ان أفلاطون قد حدّده بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على اثينا ، مسارحة او مداورة ، انها قد جمعت اكثر من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : « لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجـال ، كما ان عشرة آلاف لا يكوّنون مدينة ايضاً » . وجلي ان السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في اخلاقـه ايضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينـة التي هي قلب الـ « بولس » . وفي حالة الخطر ، تؤمن أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (اكروبولس) مرتكزه الأخير . هنـــا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهنا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودهـــا لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبليـــة والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتتين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجنّي عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبـــل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررهـا حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المُخضَعون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحيـــة الحقوقية ان المدينة تعامـــل بالمساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونهـا استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلّـفها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مـع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلهـــا بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردّها الى تشتتهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

سيادة المدينة الخارجية

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة . لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يحدّ من مندوحتها . فهي تقر ، لا بل تعلن ببعض التيه ، انها يونانية . غير ان انتسابها الى مجموعة عنصرية اكثر منهـــا اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كعبادات اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقـــد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لمغزى كبيراً . كانت اولمبيـا مرتبطة بمدينة بلوبونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرّافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وايام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرّتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الايجازي ، لو اكمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكيم أعلى يتولاه جهاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنتان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتذرع بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمّرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكيّف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى اولاً ، والتّساليين *Thessaliens* قبل الحروب الميدية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني اخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت ايما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعتها الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتعهدات دولية تراها متوافقة ومصلحتها ، ما لم تضطرها قوّة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصلحتها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلّظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدّد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنقولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالفوسيديين

والايتوليين الذين لم يكن لد « بولس » عندهم حيوية او وجود ايضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً بيّناً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعية للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للمدن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منهـا بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يجوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قيض لهـا نموّ طبيعي ، لانتهت الى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية، بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتاة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطـار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائـل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد مـا يرى في غير مكان . ومما لا شك فيـه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤدّ الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانـه قد أفضى ، على الأقل، الى ارتخاء روابطها الداخلية واضعاف بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عمليـاً على ادارتها : ولكن مجرد نجـاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلق انطلاقة مشجعة لدليـل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعـاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر مخيّرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتيح للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحيـة بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاً حريصاً حذراً حتى ذاك التاريخ ، بغية ايجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثـال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس »واملته الضرورة، لانه يحاول بشتى طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حـد نهائي للتفتت الاقليمي الخاص .

المدينـة والفرد

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والكائنات على السواء ، وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقداستمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديموقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتهـا . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطل الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة. فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليغارشية) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يستهويهم ، على الاقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا ما نظرنا الى مبادىء تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً، كأكمل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تنعت بها مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليغارشية الحقيقية تقوم على اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينهما هيئات وسيطة او اطارات اجتماعية منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكّلة وفاقاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عادات البنوّة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل ما يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة ما يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابها . اجل ان هذا التطور يحرر المواطن من الروابط التي تقيده . ولكن المدينة ايضاً تفيد منه لأنها تصبح أمنع قوة وطليقة في ممارسة سيادتها المباشرة الفورية على الافراد المنعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشيين ميل نحو سبارطة سبق ونما عندهم بفضل عدائها للاستبداد، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيما وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها الثلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفهية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادىء فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظلماً وعدواناً مناجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا ما حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحدارها ، شأنه في تحاشي احدار ابيه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه، لانها تفرض على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفيات مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع. وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانها

بذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتنال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهتم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً ما تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك لاعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تماشي « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل اعطائها المزيد من النفوذ ، تطبع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انها في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعيها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن اعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمل باجراءات محددة . فليس اذن، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحياة البشرية وجميع مراحلها واعمالها ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيسعى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيب للاثينيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسها – وقد عدّلها كليسنين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها – تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية على السواء . فهي تحدد الواجبات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربية الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلكات العقارية ، فمحافظة على الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهملتها دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تتض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشمئزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصدائها واجملها في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلك ، اباحة الفرص لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمري هو المثل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضة ؟ وكم منهم كانوا مستعدين لتكييف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحييزه . . .

وعلى الرغم من بقائه نظرياً في غالب الاحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فان هذا المثل الاعلى يمثل واحدة من أثمن معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ – خطوط التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية

بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالاضافة الى مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . واذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدّة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشإه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثل على ذلك : فالملك (الفاسيلَفس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفاقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات المخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا ايضاً تشذّ عن القاعدة . وليس من أقل مميزاتها ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الايريبونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقوّاد جيوش. ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهيبة الى الامتثال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتّان، في سبارطة نفسها بين، ملكية اليوم وملكية الازمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولا سيما في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهنالك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفينيقيين الساميين القوية ، المقيمين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالاضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشغبين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . ومما يلفت الانظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علائقهم

بالاغريق ، بلقب « الفاسيلفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجـــلال في الملاحم الهوميروسية . ولن يعمّ استعماله من جديد إلا بعـد الاسكندر . فكأن مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالاجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحكم الفردي بوجـه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كاف لأن نرى ، في نظـــام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ. فالاستبداد، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وايطاليا الجنوبية مثـلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسهـا التي أتاحت له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضـاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاتروريون في كومس (٤٧٤) ، حـكم على عهد سلالة الديينوميتيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعـــل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدا الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولا ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستثمراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانيـة ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذيول الأزمة التي تمر بهـا المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

فـ « البولس » الكلاسيكيـة تخشى الفرد المتفوق الذي قد تـكلفها خدماته ، اذا كان لـه من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانهـا لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاهـــا . لذلك فليس من احتياط لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظِنّة مهينة في نظرها. فلا يدوّن اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنـــه عرف بانتصار الاثينيين، ولا ان يدعو انتصار ماراتون باسم ميلتيادس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لغده او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمـــله . فمهما كان من احترام بريكليس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقـــد قوّى التطور اللاحق هذه النزعة . اجـــل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أتاحت للقواد المنتصرين مزيـــداً من الشعبية . فإن حرب البلوبونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لهما ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق. وهكذا غدا القواد منذ ذاك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هـذا الحماس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة، او خيبة الامل فقط ، انهيار صنم الأمس مع مـــا يرافق هـــذا الانهيار من حميا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظمة طيبة ايبامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرهما من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينـا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جـداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للغرامة او النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظِنّة انهـا من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط اولئـــك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرها . وتجدر الاشارة هنـا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وقفاً على المدن الديموقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليغارشية ايضاً حيث تسيء الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائهـــا . لقد قيل الكثير عن الحسد الديموقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظـار بسموّه عن المستوى الـــعام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية « البولس » . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصيّة ويستبدل النواميس بارادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصيّ بوزانياس الذي انتصر في بلاتيـا ، كما ان أثينا لا تزال تخشى قيام بيسيستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثهما مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهـــذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

الجمعيـــة

ان هذه المبادىء العامة التي اتفقت الاوليغارشيات والديموقراطيات على الأخذ بها قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون. وقد تتفاوت الاهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذهنية والعادات التي تسيّر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقـدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده)على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بآراء مستشاريه ، وفي

الظروف الهامة يدعو الجمعية للالتئام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة، إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة جماعية . لذلك فان الشروط العامة لعلائقها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلفت انظار الرومان الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة تافهة لهـــا مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانيـة يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجـــات معدّة في الارض المنحدرة . فتثبت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتهـا الاولى النافذة ، كما سيخال لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجّـاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد آثر الحكام في سبارطة والمدن الاوليغارشية تجنب الصعوبة على مجابهتهـا . فالجمعية ، وفاقـاً للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفعـل فيها أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيّنة فتدور حول دخول الجمعيـــة الذي وضعت له في المدن الاوليغارشية شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي يحدّدها غيرها حوالى العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في مـا تفرضه عليهم من رسوم مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين مارسوا ، مهنة او تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المـــدن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية داخل الجمعية لا سيما حق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعـل من هذا المبدأ حرفاً ميتا في المدن الاوليغارشية ، ممـــا يبرّر تباهي الأثينيين بأن ديموقراطيتهم مبنية على « المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرّد تشابه سطحي فحسب . فانمـا هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوّض به احد : فاليونان الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه الطريقة بالطريقة السهلة ، عـلى الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي احياناً الى محرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينـــا في خلقيدونيا او في الهلليسبونت (الدردنيل) ، محتفظة لهم بحقهم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس من نفوذها ، أعني بـــه الخوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقة التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالمساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كفئات ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابداً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلمس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الخشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

المجلس

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليغارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب . اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليغارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعدّ هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليغارشية توليه ، بالاضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . ومما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانجرافات الطائشة ، ولان تشكيله ، بنوع خاص ، يمكن ان يحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خفّضت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للمناقشة او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليمات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون

لكل مدينة يونانية ، اخيراً ، قضاتها المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها – وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الغرار – ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياط الا ويتخذ حياله .

يعين القضاة لسنة واحدة فقط ، وباستثناء الرؤساء العسكريين – وقد تأكد هذا الاستثناء في اثينا – لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الاقل . وهم كثيرو العدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة اصيلين . وقد تمشت روما ايضاً على هذه المبادىء الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاة في اي مكان ان يتخذوا ، مبادهة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب ، حين يقودون الجيش ، اعطاءهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي ، في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس ولمراقبة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائما بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليغارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمري دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، رومانى لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك فقد سعت دائما الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليغارشيات والديموقراطيات: المواطنون الايجابيون والمواطنون السلبيون

اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجه التشابه بين الاوليغارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبريين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاضد المتبادل . فصوناً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تفاني مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليغارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمري يمر الخط الفاصل بين النظامين .

ترفض الديموقراطية التفريق بين مواطنين ايجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمـــام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أثينا المثـــل بقوة منطق لا يتنافى مع حدّ ادنى من التسليم للضرورات العملية بنوح خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيهـــا والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاء او لأهمها على الاقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفـــاء ، فيما خص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقـات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . امـــا قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاتّيك وان يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغـاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جـداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية : فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهربا من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافـة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلا . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني ، كما يجب ، لادراك شمولها ، ان نفسح مكاناً خاصاً لكابوس التأثيرات المالية والنّسَبية والدسيسة العادية والمخاتلة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديموقراطية وإثمن فتح حققة « الديموس ».

على نقيض ذلك ، تفرق الاوليغارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبـارات السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامـل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليغارشية ، بل اوليغارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبر ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقهـا ، بحنين دائم الى الانظمة القديمـة ، اذ كان الاشراف ، بفعل تفوقهم ثروة و « صلاحـاً » ، يبسطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلّم إلا بما هو ضروري للتطور العـام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون -- اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ – الديموقراطية اليونانية

تقدم الديموقراطية

من الخطأ الفادح ان نتصور ، انطلاقاً من اولوية أثينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس، ان الديموقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذاك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة، بفضل هزيمة اثينا في حرب البلوبونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديموقراطية ان استقرت في اثينا، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات، حتى الاوليغارشية، على الاستقلال، كافية لأن تتنفس الديموقراطيات الصعداء في كل مكان.

استمر تقدم الديموقراطيات طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديموقراطية الى اليونان البربرية حيث تتوسع توسّع بقعة الزيت. ويعود الفضل في وثبة الديموقراطية هذه ، قبل اثينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديموقراطية وتعممها في كافة انحاء بيوسيا ، بعد تحررها من الاحتلال اللاكيديموني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبة هذه الانظمة الى قلب البلوبونيز ، في اقل المقاطعات الجبلية تطوراً حتى ذاك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطىء من يعتبره خدمة جلّى للاوليغارشيين، قد اخر هذا التطوّر تأخيراً لامراء فيه. فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديموقراطيون اجمالا ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي افتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون، بين هاتين المثاليتين لا يدع مجالا للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي. فالاسكندر يقيم انظمة ديموقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديموقراطيين في اليونان نفسها. ولن يبقى للاوليغارشيين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديموقراطي ، واقعاً آخر غير ديموقراطي.

فما هو تعليل اندفاع الديموقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، واهمها هبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوبونيز. فإن هذه الحرب، بحد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امدها.

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقبتها وأتت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعضعت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستترة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدّرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بحدتها ، موجزة ومعتقة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديموقراطية لأنها تتفق ، اكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستتبعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب ، لإيقاف الدفعة الديموقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفق إليه ، على الرغم من حدّة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديموقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

حدود الفكرة الديموقراطية اليونانية

بيد ان الديموقراطيات اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحدّ . وقد يستهوينا ان نصمها بالتناقض لانها حصرت في مواطنيها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحها لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها ، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدّنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرّد اشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديموقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنيهة واحدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحدثات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديموقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدن الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتّيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارهـــا الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقلّه في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبـــات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميزهم عنهم،على هذا الصعيد، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفاقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسعهم الاشتراك فيها إلا بحصولهم على صفة المواطن ، وقد بخلت أثينـــا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها اثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّى في مختلف الحقول. ومن النادر جداً ان يكون المنح جماعياً .

من أوجه التناقض ايضاً ، أن تتبنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجـال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعته العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل– وفي غير أثينا ايضاً – حتى لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً: وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثـــلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ – ٤٥٠ والذي اقترحـه بريكليس نفسه يقصر المواطنية على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليهـــا إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغالاً أو اجانب . وليس استصدار هـذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكليس اولاده الذين أنجبتهم له أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي انجبته له أسْباسيا الميلية .

الديموقراطية والاستعمار

كان بريكليس هذا نفسه منشىء الامبراطورية الأثينيـــة الرئيسي في القرن الخامس التي قضت عليهـا حرب البلوبونيز والتي أراد أثينيّو القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمكر في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعبء متطلباته الثقيـل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديموستينس الذي توفق فعلاً ، في بعض نفحات خطبه الرائعة، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالهـا . ولكن خطباً اخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيـل تأمين المساواة بين المشتركين في المجهود العام لم تكن سوى مجرّد حيل اخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفاقم . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثـلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها للحضارة اليونانية : فقد سبق لبريكليس ، اذا صدقت رواية توسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجـل ، ولكن المعلّم قد تقاضى بشتى الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينةيونانية توفرت لها الامكانات، بفعل قوتها ونفوذها والمبادىء نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخـلي ، لتحطيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسموّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنهـا تهربت من هذا الواجب . فكم كنا نتمنى التوفق الى بادرة او بداية ، ولو وضيعـة ، تنم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلمس شيئاً يذكر يوازن ابقـاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ – ٤٥٠ .

الديموقراطية اليونانية وليدة زمانهـا

تبرز الديموقراطية الأثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا العصرية ، وكأنها أوليغارشية فعلية لا يميزهـا عن الأوليغارشيات الحقيقية سوى انهـا اوسع عدداً . ولكن المفاهيم العصرية لا تكوّن قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالهـا يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمـة بالرق كضرورة طبيعية او كواقـع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحيـة السياسية بمن يبقى سيّده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديموقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابـة بالتالي في ان تكون احدى الاوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنية السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامحهم الزواجيـة ووشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقـد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انماء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليهـا نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديموقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدّل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفسح مجالاً لمثل المدينة الاعـلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم . لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودهـا الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالهـا سليماً ومؤمناً إلا اذا اقعدته على سيادتها . فإنمـا هي انانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي ترتدي ، بانتقالهـــا الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنية المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بهـا . وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجه التجاري وعـلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنية ، لأن من شأن هذا الادخـال ان يغتمر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيهـــا جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرّد قرى ؟ لو ان هذا الحلم، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثـــل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبثبوتها في وجـــه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ – ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضـاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الفصل الثالث

الحيـاة المـادية والاجتماعية

١ – المجتمعات الريفيـــة

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جـدّاً . فالأسفار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافىء تتصل بهذه المرافىء وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط. لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تُقايض المحاصيـل إلا بقدر محدود جداً. فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلهـــا وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكوّن عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخـــاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

كبار الملاكين

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثر فيهـــا المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحظيون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيـــح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعيـة الجديدة . فإليهم يعود الفضل في انتشار استعمال الاسمدة والمروج الصنعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلـك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتاب « الاقتصاد » صورة مثاليـة للسيد النابه

الذي يتلقف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحـــه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الخيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كثب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعيـــة في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعـــل نبلهم ، مدينون بأملاكهم لجدودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعـد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . ومـــا مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هواية التمارين الطبيعيـة والصيد والفروسية والاطعمـــة الفاخرة من تقدير قصائد بنداروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون لحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عباداتهما كإرث خلّفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغناهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هامـاً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبيلهم . ويتأثر بهم ايضـاً فلاحو الجوار الاحرار حتى، ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفـة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قـــد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

الفداديـــة

وهنالك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقـــاً بمراقبة رئيس للعمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدها احد قبل الرأسماليين الرومان . ولكن الفدادية واقع راهن هنا او هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديها، وهي التي وضعت نظامهم وألحقتهم باقطاعات لم تمنـح مواطنيهـا مبدئياً سوى حق الانتفاع بها . ينشىء الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون عـلى هواهم قطعة الارض التي أقامنوا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي خُصّت بـــه هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الاقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فدادي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفـع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيّد . اجل هنالك واجبـات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي نجهل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمـل العدّة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن ما يصعّب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشُرطية التي تتخذها سبارطة بحقهم : كاطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فدادي يتجول ليلاً ، وكتحظير حمل الاسلحة عليهم . ولعل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتبهون خاصة بالمسّينيين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب حبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مسّينيا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينية ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفدادي ، كمزارع مضطر لدفع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بل الفدادي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيه الفردية بخطوات حثيثة .

صغار الملاكين

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمال زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان. فهنالك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني به نظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انه يسود في غير مكان ايضاً ويكوّن بلا مراء المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سعى وراءها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراءها في الشرق ، متتبعين خطى الاسكندر ، او ملبين نداء الملوك الهلّينيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فيها مأثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرها الذهبي . فلا أجانب في الارياف لأن المبدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حق تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . فغدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتيتاً من قطع الارض النائية عن منزلهم الحقيقي . وكثيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينه على ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطاع الفلاح بسهولة ان يوسّع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قِطَعاً قريبة منه قد تبقى بائرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيها . وفي المناطق الجبلية يعيش بالتقتير حطّابون وفحّامون تعودوا شظف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلأ والزرع . فالمروج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدنّ من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد. وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العميقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنية المتأخرة، ترك الارض بوراً سنة بعد سنة وحراثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجياً ، وبالتالي بعض المال ، سوى الاشجار المثمرة كالتين والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابه رؤوس اموال ينتفع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزه لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطمع عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه، يشعر، في استقلاله ، باعتزاز حلال. ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز حبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وكمحلّف او قاض صغير . وتغريه هذه الوظائف بنوع خاص، عملياً ، حين تحول سنه دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكّر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدريهمات . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمل على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الارض الموروثة عن آبائه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون تململ ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصائده ، عدّة الهوبليت التي هي إرث والديّ ايضاً. ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها السماحة . ورغباته المتواضعة وافراحه المبتذلة وشقاوته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ – المقايضات

الاقتصاد المركب : شراء وبيع

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ، حتى عندما امنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية، في اهنأ ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضؤلت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وايطاليا الجنوبية ومصر وشواطىء البحر الاسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأن تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسدد اثمان المواد المستوردة منها . فباعتها النبيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتها ايضاً ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « الفقر ، شقيقها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نموّ اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولاً تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانته . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسطاء والسماسرة في جميع انحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصرفي .

المراكز الاقتصادية الكبرى : أثينا

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافىء القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والآهلة بسكان عالي الهمة او كثيري التعرض للفاقة ساعدتهم ايضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها نفوذها وقواها العسكرية ، التي امنت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدنا اخرى او تستفيد على الاقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، التي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنية بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عظيما . وفي ايطاليا الجنوبية ، نرى طارنتا ، وان لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي ايضاً بروزاً نهائياً خدمها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضا او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فتسقط خلقيس وايرتريا وايجينا او تزول امام نمو اثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارتها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للاتجار مع صقليا وايطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لا سيما وان الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انهـــا تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مراء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليهـــا حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستجلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزانتها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمراكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيهـــا على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تنعم بـــه على ذيوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذاك الحين انـــه اداة دعاوة نافذة . تساند قوتها السياسية نمو قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نمو قوتها السياسية . فأثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عـــن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كِسَرُها على الشواطىء الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقـاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا مـا أردنا الاقتصار على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لهـــا بان تضرب ، باعداد كبيرة وبربح قيم ، نقوداً مرتفعة العيار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرن الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكوّن ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، الـــتي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جـداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية — ايفوسبوتامي في السنة ٤٠٥ — او رقابة يفرضها عدو برّي — الملك المقدوني فيما بعد — على طريق المضايق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ — المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع انحاء اليونان . ولم تنشط الحيـــاة المدنية الا في بعض الامكنـــة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنهـــا وضيعة في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بهـا اولمبيا اولا . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيهـــا انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراؤه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والخامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

امـــا في المدن الكبيرة فنعرف ، عـــلى الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

الحياة في سبارطة

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قـــد حيرتهم في الوقت نفسه بمظهرها الحقير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كوّنها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعـــة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعـــة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندية ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهـــار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الخيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غـــير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفريضة العينية المتوجبة على الفداديين في املاكها تكفي نظرياً لاعالته وإعالة اسرته دون ان يقوم باي عمل .

كان من نتيجة هـــذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جـــانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفداديون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مـــدن صغـــيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسهـــا ، اى المواطنون المنحطون والانغال والمحررون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهـــذا الانضمام ما كانا ليمنحا الا بقرار من

السلطات ، على ان يتملك المستفيد منها ارضاً منتقلة اليـــه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظيين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة العـــائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفداديين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجـــال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوبونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرافاً كلياً على تربيتهم ، والسلطة التي تمارسهـا المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل. ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير ، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يحتفل بهـا بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيـام الجوقات بتوزين مقاطع شعر قديم . فبسبب جمودها في تقاليد تتباهى هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذى لا تربطهـا به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عـــن بحر ايجه ، وبتحظير السفر الى الخـارج على مواطنيها والاقامة فيهـــا على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبـــة الحضارة اليونانية .

فشتان ما بينها وبين أثينا .

مناجم وعبيد الـ « لوريون»

هنالك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حيـاة ريفية تختلف عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ « لوريون » جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار مناجم الرصاص الممزوج بالفضة ، هنـــا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، تؤجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تكرس لهذا الاستثمار اموالاً هامـــة يؤمن المستأجرون بواسطتها حفر الدهاليز ، واثمان المواد وأجور اليـد العاملة المتمثلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلاً لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيقياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوبونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي. اما كسينوفون، فقد اقترح في كتابه حول «المداخيل» الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بامكانها ، بفعل قدرتهـــا على تخصيص الاموال الكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقات تأجيرهم للملتزمي المناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تفضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم باشراف ملتزم يسعى وراء الكسب السريع ، ولا يهتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرها بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهاليز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخّنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كئيبة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيها . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوبونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتّيك في سيرهم للقضاء على أثينا ، حطّم عشرون ألفاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياف التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم ايضاً انفجرت ، بعد ذلك بزمن ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وايطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تخيل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

العبيد المدنيون في أثينا

ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون باعداد كبيرة في مكان واحد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون هنا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بعظمته عن النطاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الاربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحياة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحدّ وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعة او « المربي » وبين الولد الذي رافقه هذا المربي في نزهاته وعني بتربيته وتعليمه . وقد تسوهل في عقد الزواج في البيت الواحد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء ايضاً . ولكن اكبر معمل وصلت إلينا أخباره ، وهو مصنع اسلحة في ايام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيه مائة وعشرين عدّاً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . ففقدان الآلة لا يساعد على ذلك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمل الصناعي المهني ، كالحداد والسبّاك والخزّاف ، الذي يعمل شخصياً مع بعض العبيد . فتقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سيدهم علائق لا تخلو من عاطفة انسانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك حرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعيلون أنفسهم بمعزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابسات الحروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الوقحة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدّد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القصاة أنفسهم ان يحكموهم بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من قساوة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكاويهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدّد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اسواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عذوبة والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا تزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدوله ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

الاجانب المقيمون

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص : الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقيم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحرز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومردّ ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالاضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهره ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تمييز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والماليـــة نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عبـاداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجـارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حيـــاته قصيراً او طويلا . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانهـــا خليقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرّفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، كـ « ليزياس» و « ايزيا » ، كانوا اجـــانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لا سيما في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المفرّق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجـــارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فـان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

انصراف المواطنين عن النشاط الاقتصادي

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هـــذا الاسهام الكبير في ثروة وقوّة أثينا ، يولي الاجانب اهميـة لا تتناسب وعددهم . ولكن له مـا يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديموقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

بتأثير التعويض اليومي

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي تتولاه الدولـــة ، للقضاة واعضاء المجلس ومحلّفي المحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعيـة الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم مواردهم المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومي . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً – افضى هذا التعويض تدريجياً الى إثناء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة اكثر بساطة واستمالة من العمل اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بعنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تخفي احدى النتائج المباشرة لتعميم التعويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة اثينا وتجارتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة

ليس من شك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي لا تستسيغ عملا يُنفّذ لخدمة وبأمر احد الزبن ، او بانتظار زبون ممكن فقط. فقد جاء في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدى لاقوال هيزيود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي ، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل؟ وفي الواقع ، اذا ما قُدم لنا ، بصدد اثينا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الحط من شأن خصمه ، اسشين ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا مهناً وضيعة . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيّر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطب الحكام والشرائع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤونا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً عن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهارتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة. كثيرا ما يقلّل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمّن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعللونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها ، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزبن .

لذلك نرى خصوم السفسطيين يثور ثائرهم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم ، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الامور المعيبة . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعيين على العموم وراء استثمار ثروتها . فتستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة العمالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوبونيز والذي جرف الى داخل اسوار المدينة الريفيين الذين هددهم الغزو وافقرهم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليغارشيين وعدم الثقة بالريفيين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معملين ، فكان الفضل في بروزه للمحاماه شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سريع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

فقدان الثروات الطائلة

نرى ، والحالة هذه ، ان الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في نمو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائلة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائلة نادرة جداً .

كان « كالياس » ، في عهد بريكليس ، أوفر الاثينيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص، مائتي مَنَاً من الفضة (اي ما يوازي ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤). وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مناً تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للمتزمي اللوريون . فالاول والثاني يهتمان كلاهما، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مناً . وقد اكد ديموستين ، ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، « ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى » . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولا .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ ان التفاصيل الدقيقة التي قدمناها بصدد أثينا تغدو ، بصددها ، نادرة جداً . يروى ان احد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بخمسين مناً ، وربح في هذه العملية مائة مناً . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تعويض لقاء الاشتراك في جلسات المحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شأن . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكده هيرودوتس ، — وهذا يعني اننا امام حالة شاذة — فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منهما في اثينا .

نستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي. فهي ستبقى لزمن طويل وقفاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسركسيس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته النقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي منا من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي مجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب. وقد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضآلة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهم هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

ولكن هذا الوضع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

٤ — المدن والحياة الخاصة

البيره واثينا

يتّضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقلّه فيما يتعلق بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتّيكية اخرى هي البيره. تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحمي البيره سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكتي » ، وتربط بين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لايثاق الصلة بين مراكزها الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينا بذلك الى تحسين مركزها البري والتحوّل الى جزيرة توحد بين اسطولها وجيشها توحيدا لم يعرف له مثيل في مكان آخر ، حرصا منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طيلة العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرّة واحدة تحت ضغط الحصار والمجاعة بعد تدمير اسطولها . وقد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيرا ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

اجل ، ليس المكان ما ينقص في البيره . فالمدينة حديثة العهـــد ، بنيت في اواسط القرن الخامس ، وفاقاً لمبادىء تنظيم المدن في ذاك العهـد ، تنفيذاً لمخطط هندسي . وهي تحيط بالمرفأ التجاري الوحيد في الأتّيك وأحـــد المرافىء الحربية الثلاثة المعدّة حول الـ « اكتي » والمجهزة بملاجىء للمراكب ودور الصناعة البحرية . وتجـــاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافىء المتوسطية البضائع على انواعها ، السقائف والمستودعات ومكاتب الجمرك والصرافين

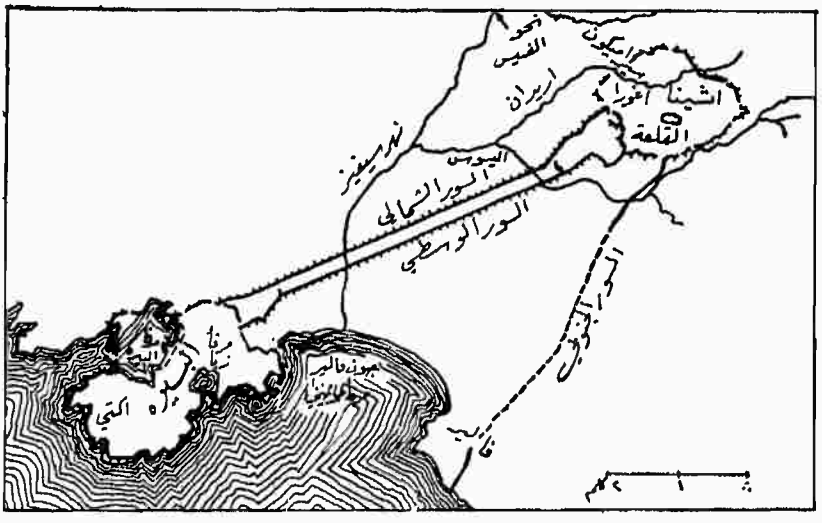

الشكل ٢٣ ـ أثينا والبيره في القرن الرابع قبل المسيح .

والمصفق (البورصة) . وتمتد الى الوراء المدينة نفسها الـــتي يتألف الشطر الاكبر من سكانها من أجانب ينتمون الى كل التابعيات ويتكلمون كل اللغات . ويجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بهـــا في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالاخطار . يعتاش السكان المقيمون فيها من المرفأ وتجارة المسافرين والبضائع فيه . ولكن الطبقة الراقية لا تطيل الاقامة فيها لانهـــا تجمع كافة طوائف البشر الذين لا يتكلمون الا عن المـــال ولا يهتمون الا للتجارة . ومن حيث هي شبه متروكة للاجانب وللمواطنين الذين يتوجب عليهم الخضوع لاوامر وليّهم او لأهواء زبنهم ، فان البيره اقطاعة ديموقراطية : فيها يجتمع خصوم النظام الارهابي الاوليغارشي الذي اقامته سبارطة المنتصرة ، لاستعادة اثينا بقوة السلاح .

لم تحاول اثينا القديمة اذن التوسع نحو البيره والبحر داخل التحصينات الجديدة حيث لا تزال مساحات كبيرة خلواً من البناء . فضواحيها تمتد نحو الشمال خصوصاً كأنما تشدها الحياة الريفية التي ما فتىء العديد من المواطنين متعلقين بهـــا بتأثير من مثلهم الاعلى وشائج قرباهم ومصالحهم كملاكين . وهي قد ضاقت بسكانها في نطاق أسوارها الـــتي اعيد ترميمها بسرعة غداة الحرب

الميدية الثانية ، قبل تفتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من فخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارصفة على جوانبها ولا بواليع تحتها ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد شيّده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة نميل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظللها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسمك المجفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام اعين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

المساكن

يتكلّم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا الرقم لمرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدّة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصراً على قاعات الاستقبال التي ألبست سقوفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمدبجات والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمّرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء التزيينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البتة في الاثاث . فان أثاث القيبيادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرّة والاواني ، لم يوفر اثماناً مرتفعة حين باعته الدولة بالمزاد العلني .

سيدة البيت

ما آن يبلغ البيت حدّاً ادنى من السعة والرفاهية ، حتى يفصل بين الغرفة او الغرف المخصصة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجة ، وبين الـ «انذرون» اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا" نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يتبلغ ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيرا اوشرا . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة ، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيا السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعـــر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المـركز الاول لوالدة « نوزيقا » في الولائم التي دعا اليها « القينووس » . ولكن هـــذا المشهد ما كان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجـلّ ما نتراءاه في تمثيليات اوريبيـــد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدّم الفردية كان مدعاة اولى لوضـــع قضية شخصية المرأة وتحريرها على بساط البحث . ولكن هـــذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

حياة الرجل

ان الحياة الخارجية كلّها ، ممـــا فيها المشتريات الغذائية مـــن السوق ، تعود للرجل .

فهـــو سيّد بيته قانوناً ، الا اذا الجأه حرصه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر اهمال « تربية »اولاده ، اي تركهم والقاءهم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلا ، لا سيا حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بـــلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هـــذا المسكن الضيق ، مـــع امرأة لم تثقفها التربية والعلائق الاجتماعية ، لا توفّر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفـــة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الميلية التي لم يستنكف سقراط من اكرامها والتي جعل منهـا بريكليس رفيقة حياته بعـــد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقهـا العظيم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال لواقع غالب مـــا يكون قذراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدى خطب ديموستين وصف ندخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقزّ منها النفس . ولا مراء في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع راهن ، هنشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة – التي ليست دنساً كلّها – ، عند « العاشق » ، في الحماية والتربيـة ، وعند « المعشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمـة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجـال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الخشن ، يستحيـل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينـا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرياء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصدقائهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الانذرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدّم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصدقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور، ما لذّ وطاب من الطعام الشهي والنبيذ الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث عـلى هواهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرّة ومتوكئين عـلى مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفـة ولا سيما لاعبات المزمار والقيثـارة والرباب التي يحدّد القانون أجورهن القصوى . ويغلب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وثمـل تقزز النفس يخرج منها اكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إطـار « الوليمة » البهج قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيهـا سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شُبّه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتهـا لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجـال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة المخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منهـا . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامهـا العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعهـا الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هـذا المثال وبين نزعات الفرد .

الفصل الرابع

الكلاسيكية الروحية والجمالية

تباين التقدم الثقافي

ان تقدّم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او الحافزة على الاقل ، التي تشع بها عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تتراءى لنا ضآلة النخبة التي تذوّقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلّنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت احدى المحاكم الشعبية عليه حكماً بتجرع الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداء الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفاقاً لاقتراع المشاهدين بل وفاقاً لاقتراع لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يعلّل نفسه بالاوهام ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولويـــة أثينـــا

ان تفوّق اثينا على هذا الصعيد ، لا مشاحة فيـــه . وقد تحمل بعض تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بافراطها الساذج الذي يتخلّـله الكبرياء والصلف احياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استثمار هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال ايضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبررون الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثرها في حقول الفكر والفن . بيد ان أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضمنياً مـا تستحقه من اكرام بمحاولة السموّ بالمدينة التي حققتها الى هـذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد الماليـة التي أتاحت لها الانفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الاثينيـين انفسهم الذين عارضوا بريكليس لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعهـا حلفاؤه « لتمويه وتزيين المدينة كالمغناجة وإثقالها بحجارة كريمة وتماثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا » . وهذه المعابد انما هي البارثنون مع تمثـــال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً مـا ننسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن اثينـا ، في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا الخرج الذي لم تتردد اثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثنون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء اخرى كثيرة . فبالاضافة الى مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصاديا ، اذ ان وجودها يفسّر ، أقل مـــا يفسّر ، نموّ مرفأ البيره الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعـــد انهيار الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيره يوفر مداخيل الجمرك ويؤمن الخامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد اثينا . ويكثر هـذا النشاط ، على صعيد اوسع ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقـال الاثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائجه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة.

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية الـتي تحلى بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هـذا المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلي ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالمواهب السياسية التي فرضته على مواطنيه ، وبميزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل « ميله » في العهد السابق : فهنا ايضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون تكرر هـذه المصادفة مجرد اتفـاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة الميليّة في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق ونوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسباسيا ، والمهندس هيبوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازومينيي وبروتاغوراس الابديري وبيتوكليدس الكايوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء. اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة ، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع العصرية الراهنة تضطرنا الى تحوير التشبيه : مراكز اقليمية تكسفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ — الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

الورع الشعبي

ان الورع الشعبي ، الذي لانعرفه جيداً لأنه قلّما يستهدف نظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وفظاظة احياناً . وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالبا ما يجهلون مغزاها الاصلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤالفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عملهم هذا من اي سموّ ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من الم ورهبة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى اهوال الموت . ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا بمراسم لا مكان للمنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحصري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة ، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسركسيس . فشاهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه . فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « آكل اللحم النيء » . فمانـــع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء تماثيـــل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرين جدد إليها ». وليست الصوفية ما يبعث انفجـار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هـــذه عنف ثورة تتميز بفطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقه ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليـه ديانته الرسمية .

العبادات الشاملة

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عـالم مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي. فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر باجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكليس بدلفي وحصل على عونها فعلا . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قـــد ساد بان هاتف الغيب انتهاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بهـــا دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة وبالخضوع للعظماء . ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي ، بعـــد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وفيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، الـــتي اعلنت باسم الاله على مدنسي القدسيات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقـــابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحيّة الاصليّة، أن ساندت، تشفّياً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استئجارهم المرتزقة بأموال الإله . وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القدسيات ، بتتويج جنوده بغار ابولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي .

وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيـع معبد ديلوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القسر مـا

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلوسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بُعدها عن الطرق الكبرى المطموع فيها ومن كونها اكثر المعابد حياداً حتى ذاك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطرأ على اولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكّت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدّة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

الالعاب الكبرى

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت عليه جذوات انشقاق جديدة ، اذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليلاً على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالقاً باسمائها . ولا تتقيد التقوى الفردية بنفور الدول ، فتنهمر الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمّره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابداً مواعيد الاحتفال بالالعاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تخرق إلا في ظروف استثنائية . وتجتذب هذه الاعياد ، اكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها اوطانهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتُطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بمآثرهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واوائل القرن الخامس وعلى غرار القيبيادس ايضاً الذين استثمروا لشهرتهم نجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالالّيريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالعاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الابهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيده . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقد عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتهز الخطباء فرصة وجود الجماهير ، لإلقاء ، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واحتذاب الزبن أو التلاميذ . ويحرص المنظمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنيتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويحترفون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعاب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدتهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن اصبح مجرّد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا اسرعهم او اقواهم ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره. ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليما اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعاب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسمانية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

اسرار الفسيس
Eleusis

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تتراءى في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون مختلفو التابعيات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار. وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفسيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توصد ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبادة الفسيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » و ديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريظها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر. غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم. وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غراره كثيرون : « طوبى ، ثم طوبى لاولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذابا » . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اغلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قمين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سرّ كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفسيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازيا لنجاح الديموقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفسيس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميها المدينة ويشرف عليها القضاة ويحتفل بها في معبد هو ملكها تتخذ هي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منهـا ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرّسوا بواكير حصائدهم لآلهات الفسيس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دولياً الا بعد ثبوت الحياد السياسي وبعد الاقتناع بان عبادة الفسيس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونها عبادة المدينة .

العبادات المدنية

ترتبط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، على العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدينة نفسها . ويسهم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها،ولم تتبن منهما الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اى المفروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص، لان المدينة تعلن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكعنوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الإلهة « اثينا » التي تُعبد بهذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا ولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نيقي » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً. فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قدتميزهم صفة عبادية يحاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يحاورون آلهة غرباء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس ما يحول دون اطالتها . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبنّي الدولة لها . ولكن ليس ما يوحّدها كلها في مجموع نظامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاور دون انصهار، وليس ما يجمع بينها سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بوادر – وربما نفوس – جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البوادر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعياد والذبائح والقرابين والصلوات واحدة

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفاقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى باهمالها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تمليه تقلبات الذوق أو الشعبية او السياسة أحياناً .

التصلب والتساهل

يتضح من هذه الميوعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات مازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفاقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية او السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدّ لها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما خص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع راهن ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شهره عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكوّن موضوع شبهة او ريبة . فان إله الواحة الليبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل بزفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريني الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرّافيه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالغ في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد افرادها الآلهة الغرباء كالإلهة « بنديس » التراقية و « وإيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجية و « أدونيس » و « عشترت » السوريين : ومنذ البدء ، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرّض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالاحرى هذه القابلية للتسرب ، مـــا يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قحّاحة مواطنيها العنصرية تفتح الثغر بيديها في تفردها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن افلاطون مرة اخرى عن منطقه السليم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشعبي حتى لا يجدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمية اللتين تستطيعان اشباع نهمهم للتأثر الداخـــلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوهما فيها .

النخبة والديانة المدنيـة والاعيـــاد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، عـلى الطقوس . ففي حوار وضعه أفلاطون ، يحمل سقراط محدّثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة امّـــا بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقاً . وفي القرن الخامس على الاخص، اكتشف قسم من النخبة — وفي طليعتهم بريكليس — مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعّد ديانـــة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتُستخدم الاساطير، بفصل أفلاطون بصورة خاصة، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادىء المجرّدة . ولكن هذه النزعة وتلك تتعديان كلتاهما امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل اراحـــة لا تحصى عن طريق الالعـــاب والذبائح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسلية والراحـة الضروريتين للسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جعلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لآلهتهـا الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جنباً الى جنب مع المصلحة الأنانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجـــة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميـــلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة نفسهـــا ، التي سخر

خصومها من حياتها المستوحشة الضجورة – وجملة بريكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويبرّر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لغير مصلحة العدوّ – بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الاشارة ، اذا ما استثنينا اعياد الفسيس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيام الامبراطورية الأثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتها المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

عيدالإلهة« أثينا »الكبير

اشتهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينا » وكان يذكّر بتأسيس المدينة نفسها،بتوحيد كافة الاتينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بجلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس. وضع برنامجه المتنوع المستبدون اولاً وسارت الديموقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الخفة ؛ والاختبارات المتناسبة واعمار المتبارين من فتيان وشبان ورجال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير ملأى بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم. ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعة ، الذبائح والقرابين . وبين القرابين قطعة فاخرة هي « البيلوس » المعدّة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطررها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرّها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهة البولياسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحّد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديونيسوس والتمثيليات المسرحية

اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكّرنا بـه افريز البارثنون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمة بين الديانة والفن ،

فان اعياد ديونيسوس تنتقل بنا ، عن طريق المسرح ، الى الحيـــاة الادبية .

كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الخريف وفي اوائل الربيع . يحتفـل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضـاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لا سيما في البيره ، لتنظيم مثل هـذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزليـــة . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الخوريغي » ، عـــلى انفسهم إلباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المبـاراة ، تنتصر لقضية قبيلة « الخوريغوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للخوريغوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد

يتضح ايضاً من العناية الفـائقة التي احاطت بهـــا الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تخطياً بعيداً . اجل ، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقادم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في المجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسهـا في المباريات الرياضية والالعاب في الاعيـــاد الشاملة . ولكن مميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكراً جداً ولا تلبث ان تتغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعاوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالاضافة الى اسباب الاراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات الميسورة دون غيرهـــا لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فمنذ عهد بريكليس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي يجهزه الملتزمون — اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعـــة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيره اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت ان رفعت قيمة هـذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبرّرها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسما من الموارد العامة كان بالامكان الانتفاع به في حقل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عـــدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعيـــاد

ديونيسوس ودرجت العـــادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلية منتحبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهـــذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هـــذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تنتظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور موازٍ الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هـذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيـاه من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئـذ الممثل المتهن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي المتهن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الجوريغي » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقـد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد أتاحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحيـاناً التي ربطتهم بالحكام ، ان يتداخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسية . ومما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي أجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتجانبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت ، في البداية ، بالاعياد الدينية ، فغدا فيها جوهراً ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانـــوية او ملحقات فقط . واضمحلت صبغتها الدينية المميزة امـــام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحجة .

٢ – الفـــن

ان هذا العهد لاجمل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمى المعاني الانسانية ، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينمّ عن ألمعية وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كـــل زمان ومكان شريطة احلال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في « المعجزة اليونانية » هو هذه الموازاة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلـــك في مجهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يُخضع الفنانون اليونانيون الواقعَ له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي معا يستطيع فيه بلوغ جمال غير عابر .

التنافس في مجهود هندسة العمارة

لم تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعـــبير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصر عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرست المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملة بما يعبر عن ورعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الآلهـــة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلـها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان مـن روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى.

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن. اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد. ولا تزال بعض المذاخر، من امثال تلك الـتي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تخف رويدا رويدا مفسحة المكان لتقادم اكثر تواضعا كالتماثيل والنذورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المـــدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيها من شتى المصادر. وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل — اربعين سنة تقريبا — فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقـد بذلت الجهود نفسها وحققت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كـما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولمبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وحيث تعددت الابنية في الـ « ألتيس ». وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيذورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة الـــتي عرفتها معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس »، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشىء هيكلها والبناء المستدير السري ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤ ٠٠٠ مشاهد.

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لتطلبات اخـــرى كثيرة. لا شك في ان للمجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا المجد لا يكفي لتعليل كـل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرقات انتقال المسافرين الكبرى، تعلم علم اليقين انهـا مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح مجهودها . وجدير بالاشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة من حرب البلوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخثيون » ومعبد « اثينا نيقي »لم يثن اوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باساي » الاركادية ، وتنتقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين. وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسمو بها الى القمة ، ثم في هذا المدّ الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

التقليد والكمال في هندسة العمارة

مهما يكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فانه لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيذورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرخثيون الاثيني المعقد، المعد لايواء الذخائر القديمة واقدم التقاليد العبادية العائدة للمدينة، برواقه الرائع المزدان باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكف المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض وابهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات قاهرة خاصة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها، اروقة تعلوها « الواجهات » الثلاثية الشكل . ولا حل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهري دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة، في النسبة بين اعمدتها، وفي تنضيد الاقسام التي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادىء الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء.

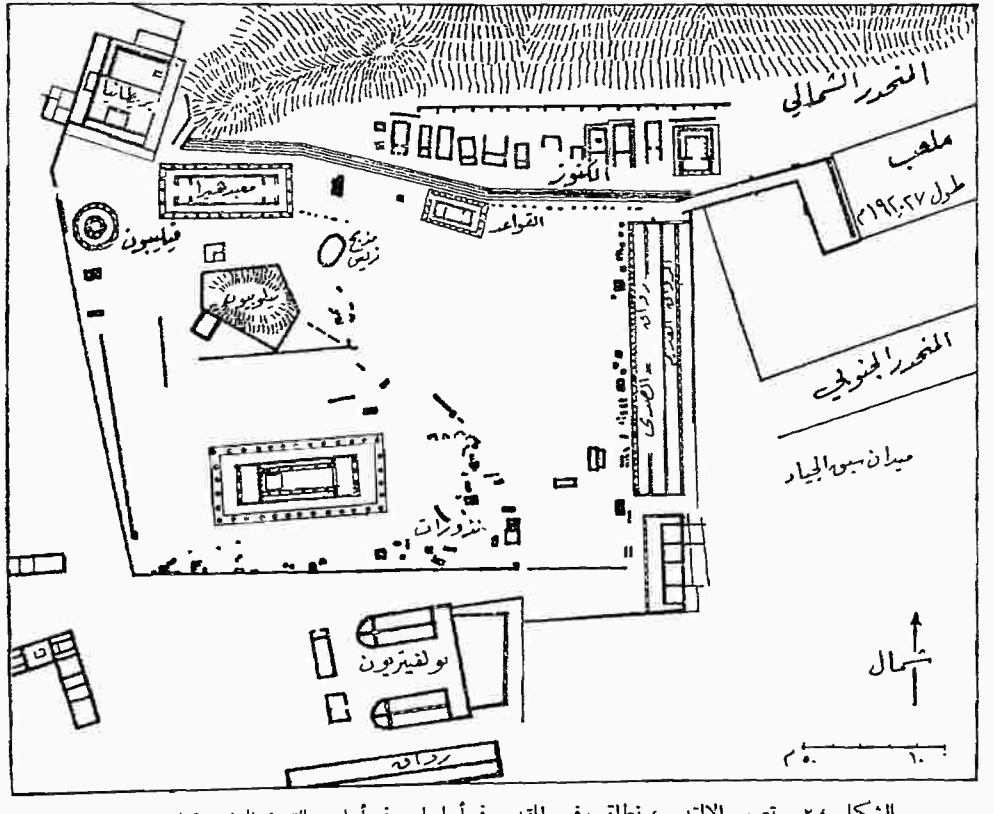

الشكل ٢٤ ـ تصميم الاكتيس ، نطاق رفس المقدس في أولمبيا ، في أواخر القرن الرابع قبل المسيح .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان انجزت ابنية اكثر تأنقا ، فى جمال اجزائها الدقيقة ، من البارثنون في اثينا ، فانه ليس من بناء اعظم منه جلالا عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنضيده ولا اعمق درساً في تصحيح الاخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشمولها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠٫٠٥٩ م و ٠٫٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠٫٨٦ م ، وبمقدار ٠٫١٠٧ م و ٠٫١٠٩ م في الاوجه الطويلة التي تبلغ ٦٩٫٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدُّب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحدب مماثل في السافات فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

تنوع النقاشة

اما النقاشة فاكثر تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتماثيل والنقوش الناتئة على السواء كما تقدم لهم ابنيتها او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا — اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احيانا سوى عذر وحجة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيتيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون. فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالتفضيل : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب «اللابيث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون »... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة ! اضف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واوضاعها. ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضاه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، النذورات والتماثيل التي يعتمد الشبهان في تحقيقها بالتفضيل على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتيح له المزيد من الامكانات المادية التي حتى لمهندس العمارة ان يحسده عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استثمر الفنانون هذه الوفرة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية، الخطوط الكبرى لتطور رافق ، دون شك ، التطور العام في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا نراها غير لائقة بها، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نتراءى او ان نلمس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونبوغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أوج الكلاسيكية

كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تساميا نحو اوج الكلاسيكية الذي أُدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولاسيما بعض الجمود في اوضاع الاجسام وإسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيق المهارة الكاملة يتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة. ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضاً ، مع انه بالغ الاتقان بحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً خفياً : ازدراء « أثينا » الفتية الغطريسة التي كأنها توقف سيرها هنيهة وتدير رأسها لتنظر باستخفاف الى طمع « مارسياس » المرائي والمخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال« رامي الاسطوانة» « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

ودرس بوليكليت جسم الرجل درساً مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدد فيه « قانون » هذا الجسم وقياساته المثالية .وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (ذياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصيبة المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلطخه تناسق حي لم يستطع تقدم العلم ان يقضي على بداهته واثر خمي تتركه ابسط حركة في الجسم كله.

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيدة تمثالا صنعته يداه ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثنون التي صممها ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضفي على الآلهة والإلهات جلالا لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عن المثل الاعلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه بجمع الصفائح الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيـــا ، لن يكون بعد ذلك شقيا . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة الـتي توحيها للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والنبل العظيم والابوي معا اللذين استطاع فيدياس ان يرسمها على قسمات زفس الاولمبي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارثنون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد مـن اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولادتها الاعجوبية بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملّك الأتيك ، والتي تبسط ، عـلى الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولا ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر مـن ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلا مراء ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تحصى الى جانبهم ، كـــما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاولئك الذين عمـــلوا في البارثنون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً، اخيرا، من التحف التي قد يتطلب عدها صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضفي على نقاشة ذاك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيمتها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لا شيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان اكـــثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بترائي الحركة ، كـما ان الايماءة في اول انطلاقها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يردّ فيها شيء الى المصادفة : فانها توحي ، باتزانهـا وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابداً دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انهـــا تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهـي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسما معتدلا ، متناسباً ومنظماً مـن الناحيـــة المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل. وليس مـن قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحـــد ، معاصر بريكليس وصديقه وبمثابة وزير الفنون الجميلة عندهم .

النقاشة في القرن الرابع

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت مـن مثل أعلى أرفـع سموّاً وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائمـاً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

مثل البولس الأعلى ، النائي والوعر جداً ، قد اخفق أذ ذاك في تحقيق وحدة المواطنين الادبية السائمين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنيت ، منذ ذاك الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليقاً عقلياً . فجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البلوبونيز ، تماثيل النساء التي تقوم

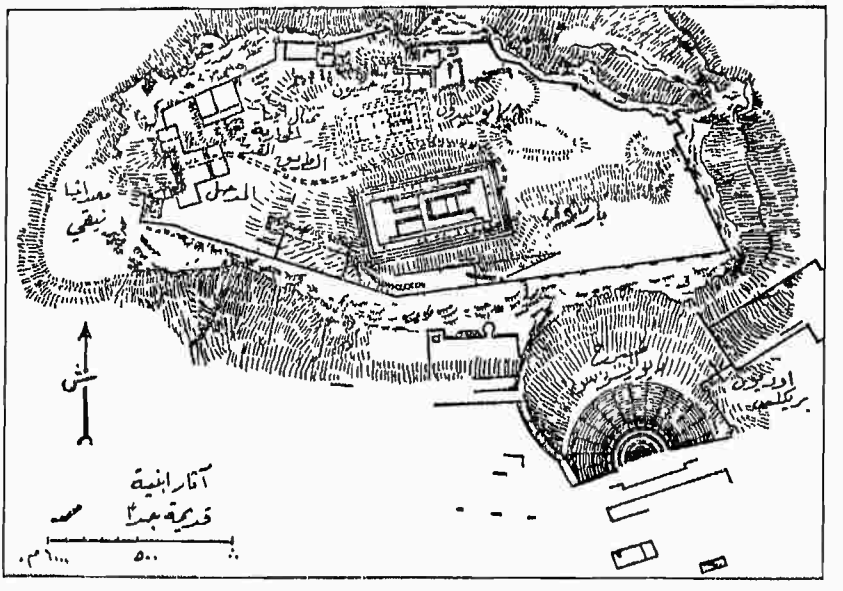

الشكل ٢٥ ـ قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الايرخثيون »،وهي خليقة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن نقشت فيها ايضاً مجموعة آلهة النصر التي تقوم على الدربزين الخارجي في معبد « اثينا نيقي » الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثلوا منشغلين في جمع الاسلاب واعداد الذبائح . فبين افريز البارثنون ، الواحد في تنوع مشاهده التي تحييها فكرة مشتركة تشرّف كافة الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسحر بما تنطوي عليه من دالة طبيعية وانس جامح، لاشك في ان هموم ولي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر. وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن باطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكثر منها دينية ليس للعقل مراقبة على اثرها في النفس ، تقرأ بسهولة اكبر على الاوجه التي يحرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهوى فيها ، بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بها ، وبعد ذلك في

عمريها المنتصر ، بفضل ارميل براكسيتيل . ويغير النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنث . ثم تتلىء الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات «الامازون » والاغريق ايضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : فأنف الملاكمين مسطّح واذناهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أطال « ليسبوس » ساقي تمثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعينين جزعتين وفما يكاد يكون منقبضاً لا ينفتح الا جزئياً لنفث قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لاشك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه، في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة، لا تتراءى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثر الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذاك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد.

الفنون الأخرى : التصوير وصناعة الخزف والفخار

نحن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشة بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل جهلنا، واما بفعل تسلسل جهلهاليونان واوجدناه نحن بين نشاطات فنية تستهدف كلها اضفاء الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذاك العهد لا يرقى اليه شك، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحة المسند الخشبية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيد في عهد بريكليس خصّصت احدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغنوت » « وزفكسيس » « وبارّاسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمديح كبير وبطُرف تؤيد شهرتهم. وقد حظي « ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنهم الذي لم يزل، في اوائل القرن الخامس، اوليا جداً وبطيء التحسن . فبوليغنوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر من استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتليين الشمع . فهل امكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تخفهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لايزال مستحيلا علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء على ذكرها الا قليلا ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت الينا .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك ، على الصعيد المادي ، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبيذ ، اذ ان نقل السوائل قد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس مايستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قد اسهم في تسهيل ظهور هذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وبابراز الكفاءات بين الصناعيين العديديين ، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هو أوضح وأفصح من ان نستطيع اهمال دلالته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نموّها الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا . ونحن نتراءى من خلال هذا التواضع ، رجالا مكبين ، في وسط الطبقة العمالية ، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاغل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهان على سلامة ذوق زبن الخزافين . وكان هؤلاء الزبن من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تقتن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجماهير العصرية -- ان الجماهير الاثينية لم تكن مبتذلة . وهذا في نظرنا استنتاج إلزامي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة ، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفتاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزبن لم ينحصروا في الأتيك بل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدّرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كايطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذاك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعاتها ، في القرن الخامس ، الى شواطىء البحر الاسود . واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً من منزلتها في الغرب الذي نزعت مصانع صقليا وايطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زبنها الاسخياء . وانما

متحف الـ « اوميتاج » في لينغراد صدين جزئياً لمداقنهم بغنى مجموعاته النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للمشهد تعيّن الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء. اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الا على بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإلهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في اجْمل هذه المصنوعات غير ناشئة عن بعنيتها، بل عن شكلها وعن التحدب النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيعة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة، الملهية في اغلب الاحيان، بقيمتها كمستندات اكيدة وبداهتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الخدر ، اجتماعاتهن عند الينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليات الولائم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلا وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة المخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الايحاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحي حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه واداها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، الم الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا يخفف من اهواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

يميز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عهوداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفينا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضيع مبسطة ، تدريجيا ، على الرسوم التزيينية ، ومن تسقيد في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب. وقد فقدت خزفيات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هـذا التطور ؛ فاذا لم يزل هنالك صناعيون ماهرون، فلم يبرز فنانون محلقون في تصوير الآنية.

ان صناعة الخزفيات، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في تزيين الحياة اليومية . ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجارة الابنوس والصياغة . وهنالك بعض القطع الرائعة في المسكوكات، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحورية اريتوسا، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعاء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمنة بعيدة، ولكنها تتميز، في القرن الرابع، وفي بيوسيا خصوصاً، بصفات جديرة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هـذه التماثيل ، مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعذنة بظرافتها البديهية لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج — لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج أثينا. ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة التي طاب للاثينيين ان ينعتوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداءهم في اكثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هـذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصبح من التهور معه ان ننهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ — الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل، ان ليس من حضارة كبيرة جديرة حقاً بهذا النعت اذا لم يقترن بهاء مصنوعاتها الفنية ببهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبتكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيهما من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان ما خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحن اوغلنا اليوم في بعض الطرقات، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه ما يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقلي في فنهم : ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قد عرفوا فيدياس في بطانة بريكليس، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاورة وقد تبع تطورها خطاً منحنياً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولي المجهود اليوناني قوة نافذة متمادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قـوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

الفلسفة : التقاليد والجدة في القرن الخامس

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحـــل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذاك في كافـــة النشاطات الفكرية الاخرى : ومن النادر جـــداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلمس عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلـم الطموح الذي دغـــدغ مخيلة فلاسفة القرن السابق، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عـن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيذوكليس واناكساغوروس وليسبوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى المخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبنوها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجّوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطىء احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال. فنحن نعلم مثلا ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علّم ان الشمس كتلة متأججة، نافياً عنهـــا بذلك صفة الالوهية . ومما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسبوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً ولا عدّ لها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الا حجماً وشكلا ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لهـا تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهـــذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمية وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هـذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا مـا استندت ، في تعليل نظام الحركة ، الى التضاد بـــين المحبة والبغضاء او الى الـ «نوس *Nous*» (الفكر)باعث الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الآلية. وقداخطأت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح، اذ ذاك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تخش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدثت حينذاك ،في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معا. وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة» .

ولكن الحملة المغرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة . وهم قد نفّروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بآراء الزمن الماضي، بفعل تجاسرهم ونجاحهم والارباح الطائلة التي جنوها من تعاليمهم منزلين التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مآخذ تثير الابتسامة اليوم، لا تمحو شيئاً من اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحـــي المعرفة وممتمدين فيها طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بـــل اعلنوا ، كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء ». فهـــل عنوا بذلك الانسان الحقيقي بكليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟ يرجح انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهملة حتى ذاك العهد . ومهما يكن من الامر، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لهـا ، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً ، واخذ بمبدإ الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ، « الناموس » الذي تأسست عليه « البولس »، كواقع غير بشري او بمأمن من التقلبـات البشرية ؛ ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوهم صيغا خطابية بارعة استطاب اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم، «تحويل اقوى حجة الى اضعف حجة » .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاهما العام. فقد كان لعمل السفسطيين اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرنا . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن طريقها في طبقات اكثر اتساعاً، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفـــاً على دوائر ضيقة ، اي ، فيما يعنينا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحيـــاة الفكرية . وادخلوا ، على الفلسفة والعلم، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له، لن يستطيع احد بعدهم ان يخرجها منها. وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان تبدّل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تتزجزج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط، في كتاب « الغيوم»، احد السفسطيين لا بل شرّهم في نظره. ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت، فشرب الشوكران السام من

الكوب الذي قدمه اليه الجلاد . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتعذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين : فهو على غرارهم، وبعدهم، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضا ، يكرس جهوده وابحاثه للانسان . ولكنه يفترق عنهم بسلوكه وطريقته . فمن حيث انه اثيني — وهم ليسوا بأثينيين — ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة. وهو يريد في الدرجة الاولى وفاقاً للحكمة الدلفية، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله وبقتنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به. وهو يعلّم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفترق عن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالوهة وتدخلها لدى البشر والامور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي بمكنتها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبذ الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتية جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفيه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد مما قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر. ولكن ما نتراءاه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية هذا السابق الممهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان تضحيته بحياته على مذبح شرائع وطنه قد جاءت ، بقوّة المثل ، تكمّل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يخلّف اي مؤلّف مكتوب .

الفلسفة في القرن الرابع

يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيّدهم أي تعليم محدد ، وفاقاً لاستيحائهم مجهود معلمهم المستمر توصلاً لحقيقة اكثر عمقاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمين لمدارس معدة لتقدير واسع ولحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهد معاضل فلسفية طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعلّم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدها في الانسان ممارسة حياة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدّي الى تظاهرات

« ديوجين » التي دلت معاصرية وفجّرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها نبوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرّة ان احتجت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهقر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف اللذة حتى الشهوانية منها، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما اهمله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيثاغورية ، ومن ان تفرّده القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قزّت نفسه منذ البدء من ردّ فعل الارهابيين اعداء الديموقراطية ، ومن الديموقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام به كمستشار لمستبدي سيراكورا، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة اشتق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لآلهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني وقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحذاقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوه الانيقة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروق الدقيقة على مذبح الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقته حيا .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التشدد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يزوّرها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونرانا ميّالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ردفق الروح والقلب : فالمحبة ، أي تلك النزعة الحاره نحو الجمال المطلق ، القريبة جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الملك نفسه لا يحاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاوّل عن « الانهيار

العصبي ، الذي يعزى اليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة المجهود المنطقي الذي قاده حتى ذاك التاريخ بمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة القليلة العدد ، والعجز الذي واجهته هذه النخبة ، حتى قبل افلاطون ، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلاً . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبل .

ليست ديانته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفياً لمذهب تعدد الآلهة ، فأنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناه يكوّن إحكام التأمل فيه اسمى مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذيول لازبة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفتها ، وبقوة متفاوتة ، تتذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فبها نفسها ، وبالمحبة التي هي خليقة بها ، وبالحرارة التي تشدها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ، في تجسدات متجددة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعلوم وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية . فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويجيب على الأسئلة التي شعر الانسان ابداً بإقضاضها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسموّ الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المُثل ، الحالّة في الاشياء والكائنات ، تتحقق في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملاً بازدياد مطابقته لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد ، شأن افلاطون ، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوحد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلّم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدنو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين نقيضتين متناقضتين ، الى « الحدّ الوسط » الذي هو الفضيلة ،

فضلة عملية قبلن كل شيء ، اذ ان مصير الانسان يتحقق على الارض .

تبرز بذلك الهوّة التي تفصل بين ارسطو وافلاطون . فقد ادّى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والمخيلة عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عند ارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأتي بالبينات الملزمة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه اولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكايوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتنزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز ابحاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها، سعياً منه وراء اسناد جدّه في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مراء ، كواضع حجر الزاوية ،في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ،لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كلوامواطنين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلا ، هو ان اثينا اصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

العلوم

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظرهم الى علم العلوم المعدّ لأن يؤلف منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية .وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ماوراء الطبيعة) قد تكوّن قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جداً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كهدرس للطبيعة ، ويجب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الاهمية التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرّر هذه الحالة الفكرية تنكر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختباري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

لهذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصر على الملاحظة . وقد حملته النزعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولى الطريقين المفتوحتين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقل الرياضيات وملحقاتها. فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة، لا سيما في ايطاليا الجنوبية، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قد بقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهما في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارنتا وطنه واسم « افدوكس » الكنيدي الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدماً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثيتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استهوى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالفهم التوفيق في احدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عن الشمس . لاشك ، والحق يقال، في انه قد اقتصر ، في الالماح الى ضخامة كتلتها المتأججة، على القول انها « اكبر من البلوبونيز » ولكنه قد عمّم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه ، على غرارها، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حول الارض . وقد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات المعارضين . بيد ان هذا الرأي المنبثق عن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مدار الشمس المستوي ، فان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخفقا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخيّرة للمبدأ العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل، مارس الاغريق الطب ابداً ولكن بشكليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآلهة او الأبطال الشافين معابدهم المتباينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس، ولا سيما معبد ابيذورس في الأرغوليد. وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قضوها تحت الرواق . ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فأن خبرتهم ، على الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هـذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهّد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس المجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنـوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فأنه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين الـتي تباهت بانحدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأه الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادىء العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والخرافات التقوية ، واعلن ان ليس من مـرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر بـه ، ناعتاً اياه بكذب الممخرقين والجهلة ، وعني واوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية الـتي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهبت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اضف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهـد ركود ان لم يكن عهد قهقرى . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرتهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قـد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافـز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو — ارسطو ذاك الذي عاد الى خطأه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر مـن مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نحدّد بواسطته ، دونـا اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعلّ ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأً فادحاً في الحقل العلمي .

التـــاريخ

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهـــل يمكن ان يكونه بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثله الأعـــلى

المكوّن بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العلمية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكاته الميلي ، في أواخر القرن السادس ، كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً ». ولكنه يتعذّر علينا، لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكليس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين؛ اما انا فأقصد من خلال تاريخي الطويل ان ادوّن كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي ». ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الا تخدع احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الالماح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بخبث ترافقه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الاحداث البشرية . ولكن من لا تخدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتياب والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظاته التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبلذة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراءة يتظاهر بها من شأنها ان تنطلي على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بحركة تاريخية شعر باهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموّها . وتقوم وحدة عمله، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرته الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول، ترمي الى توحيد الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتحطم باخفاق الحروب الميدية. فهو من تلقاء نفسه، دونما قدوة سابقة ودونما خبرة تاريخية مماثلة ، ودونما تأليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككلّ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيزودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسيديد تبدّلت الذهنية تبدّلاً كلياً . فـلا طرَف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعـــد اقصاء الحجج التافهة والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فردا كان ام خلية لكائن جماعـــي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اضف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكلّ دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عـن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجـــراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود، وفاقاً لعطفهم او لذاكرتهم يميّلون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة الملزمة ويجسر عـلى تطبيقها عـــلى حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثيني استلم قيـــادة عسكرية في اثناء حرب البلوبونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انمـــا يريد فهم هذه الحرب وافهامها غـــيره عندما يرويها . فاتضح له باكراً جداً ان الصراع يهـــدّد بالخطر سياسة التوسع الاستعمازي التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهده العقلي الملح عن الفاصل الزمـــني الذي توفر لهيرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث الـتي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول عـــلى رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هـو الذي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة التجدّد ، ومجموعـة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فشتان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول مـا تستهدف ، ارضاء نهم القارىء في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسيديد »وسمو صفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة. لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمـــل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجريده وتصميمه الفظّ على بلوغ ماهو دائم يحدّان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثالاً فريداً للمؤرخ الفيلسوف او بالأحرى السيكولوجي ، موغـــلا في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من الفقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بمماته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارىء ويثير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزّه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ايزوقراط معلم البيان ، ويكوّن ثيوبومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظريه ، رأياً كافي الوضوح ليجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدّقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الزهرهة والحدّة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان انجرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحي ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحزبية والخرافات الدينية او الغطرسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية منزهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بمجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الغنائي

لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يحيي مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فأنه قد تسامى حتى القمة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنداروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة الملوك والمستبدين والعائلات الكبيرة النبيلة ، عن المثل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاناشيد التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حِكماً ملهمة من مبادىء ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنعه بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون ممثلاً للماضي في مستهل قرن سيفيض جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، لشيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلا . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحلّ محل ذلك الذي حرمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديموقراطية .

المسرح

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نعزو الى هذا التطور الرواج المتزايد الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديموقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، ببهاء خاص لا يمكن تعليله اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديموقراطية بالذات . فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي ترتاده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثير فيه الضحك او القشعريرة من هول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعوّ للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموّ بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنئذ . وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الأعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات . وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح

الاثيني الذي بقي زمناً طويلاً دون منافس والذي ادى القسط نفسه الذي ادتّـه ابنية القلعة في القرن الخامس او مدارس الفلسفة والبيان في القرن الرابـــع في سبيل اشعاع مركز الحضاره آنذاك ، مدينة الإلهة « اثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخـذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مـــكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدّ لاستقبال الـــوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في اثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احـــدى التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيـــد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمـــدّة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلداً عظيماً . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجـزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جـداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزّنة المقاطع الايقاعية ، اكـبر عناصر الفرقة عددا ـ ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عـدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعـد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواه ، كـما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحـــل دون استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلا لماذا توجّب على كل مؤلـــف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤلف كلاّ واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيليات المعدّة لأعيـــاده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة ـ مهزلة » مكرسة لأحـد احداث اسطورة الاله . ولنضف الى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين . فعنـد الشعوب المختلفة ، وحتى في ايامنا ، عنـد الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعيض عنه باعتـــماد الملوّنات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام ، ويسهّل الايهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معدّاً له بالفطرة كدور الاله او البطل او الامرأة ـ اذ ان العادات لا تجـــيز للامرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جـلاء لجمهور غفـير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحـــد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلىّ المسرح اليوناني بكـل معانيه الا اذا اعيد الى جـوّه الديـني والاخـلاقي وحتى

السياسي ، ووضع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذاك ، لاسيما المأساة ، الى مستوى القسم الجامعة والخالدة .

كبار مؤلفي المآسي في القرن الخامس

ليس في الحقيقة ما يثير الاعتبار كرؤية الشعراء مؤلفي المآسي ، في اثينا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبفضلهم ادّى المسرح قسطه الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية . وهم يقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نلمس عند بعضهم ، لا سيما في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسشيل اوّل هؤلاء الشعراء المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قوّة التجلي البطولي في روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثماني سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك في معركة ماراثون حيث قتل اخوه . غير ان هذا الميل ، الذي كان من العسير جداً ان يأتلف مع ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة وما لبث ان انتهى الى الزوال . وقد وفّرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها بملء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي وللتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلا ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعبر هذه الفوارق ، شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة .

ان اسشيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو قد ولد في الفسيس وامتلأت روحه بتدين قديم . وهو يقبل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة منقطعة النظير ، تأثير الالوهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعالاً لا يبالي للعدل والرحمة . ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولثأر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ، على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء . ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاريوباغوس » وتمكن من تقديم الذبيحة الى الإلهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيعرف العذابات الابدية التي استحقتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عن آلهة ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فان مذهب اسشيل قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يهمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساواته القصوى . ولكن القدر يصبح اقل ظهوراً وتضييقاً، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية. اضف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبدلا من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسشيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارفع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفسطيين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المنافية للاخلاق . فليست الاسطوره في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغة الخصب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشا وهزّا مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلا وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضيعة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلاح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يعلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته. ولا شك في ان المتمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

« المهزلة القديمة »

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، ولكنها استهدفت إثارة الضحك. ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التنوع . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة «دورية *Dorienne* » في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » ممثلها الرئيسي ، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « الايمائي » . وليس من ريب في انهـــا لم تبق دون تأثير في التطور اللاحـــق الذي عرفته التمثيليات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثينيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع.

ان هواه ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حدّاً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جـداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويردري بالآلهـــة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لاذعـاً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيهـا عن ان تنسي ما فيها من تظلم فظيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجعياً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الالحادية ، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رقته المجددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هـــذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بجمالات الطبيعة التي يعـبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة مـا يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكي يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هـــذه التمثيليات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبـيراً سريـع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعاشرة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج باللواذع الموجهة الى آراء ورعامات يمحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن منشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضاتٍ شعرَ بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها.

المسرح في القرن الرابـــع

في القرن الرابع بلـغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية والاعياد ، ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وان شعراء كثيرين قـــد برزوا في غـــير اثينا . وعلى الرغم من ذلـــك فقد كان التطور عظيماً .

هبطت المأساه هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لهـا احد عظماء هذا العالم ، مثل دونيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثينا في السنة ٣٦٧ . فمؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرهم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيليات السابقة ولا سيما تمثيليات اوريبيد الـــتي تعرف شهره لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثينيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حـــرب البلوبونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهـــذا الشاعر ، وسنكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقـــد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المآسي المفجعة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيوتها ، ولكنها تحولت تحوّلا عميقاً . فان المركز الذي احتلـه فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان الروايات القديمة الـتي كان من شأن فسادها العارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معـــثراً ومشينا . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » اولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحتى في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للمأساة البورجوازية . وقـــد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « مينندروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « تيرنس » وحتى « موليير » التي تردّد صدى اسمه ، ليذكرنا بمن انتسب اليه بعده بزمن طويل .

اصول ونشأة البيان

حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهـد الكلاسيكي وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم : فهو يُرَدّ دونما ريب ، الى نجابـــة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسها في تدبيـج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارستوقراطية ، الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات . ولكن فضل الانظمة الديموقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملا حاسماً . فهي قـــد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعاوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لمحلفـين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذا ففي المدن التي غدت اثينا قدوة لها في القرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقـتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عـــن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفـني فيها يسير بمحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة ، ان نبدي رأينا في هذا البيان . فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية نادرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي الـــتي حملت بعضهم في سيراكوزا ، حيث حل النظام الديموقراطي محل الاستبداد ، على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء مـــن

« غورغياس » الصقلي الشهير ، اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشروه في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالمناداة بالصنعة الانشائية وبنشر بعض الصيغ الكتابية بل رغبوا في ان يظهروا ايضاً ، واظهروا فعلا ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروّضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوهم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى استالة وعودوهم اكتشاف الإجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الراغبون في استمرار اثرها ولا سيما في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

الاساتذة ومعدو الخطب في اثينا

نرانا لاول مرة — وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق — امام نشاط فكري وعمل حر قمينين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونهما. فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعليم البيان الذي يؤمن لطالبيه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينيغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفاضة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للمتقاضي ، بنوع خاص ، بان يستعين « بمُعِدّ الخطب » الذي يحضّر له سلفاً خطاباً يلقى امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء الممتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصياؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم به . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكيين » الذين احتفظ الاسكندريون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجانب مقيمون كثيرون : فان ليزياس وايزيا وديناركوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في انشائها وبالحدة في اقامة براهينها ، فهذا لا يمنعها من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظرف اللطيف والمرونة المستسهلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغوينا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا نجزم في صحتهـــا والتي تظهر في مجموعـة خطب ديوستينس، ليست فقط شهادات ذات اهمية رئيسية حـول القانون المـــدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زبنهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

البيان ـ الفلسفة ايزوقراط

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسمى فتركوا اثراً اطول بقـاء . خضع ايزوقراط بينهم الى شواغـــل جمالية ملحة اضطرته الى صرف الاوقات الطويلة في تحضير اقل خطبه اهمية التي نشرها دون ان يلقيهـا لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جمله المتضادة وعـــلى تحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابدع بذلك نوعاً جديدا مدعواً لان يدوم مـــا دام العهد القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة. وغدا باتقانه لتوازن توسيع فكرته وحسن انتقـــاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جـــداً طيلة قرون وقرون .

فالمبنى جوهري في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر اليونان جمعاء. فقد بشّـر دونما ملل بالمصالحة والتهدئة بين الاغريق وبالحرب الجماعية ضـد الملك الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية الـتي ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميتاً لقرائه. لا بـــل ان في مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات التي ألمت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء. فليس اذن هذا الخطيب الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير . وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، الـــتي ليست سوى الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحتى اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملا لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير، لانه يرغم على البحث عن الافكار ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً. فعلم البيان اذن مفتاح كافـــة التعاليم : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فـان ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تـــدم دوام الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته ممارسه طويلة قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى. فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

البيان – الفعل ديموستينس

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجه بعض الخطباء ، فعلا، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب الممتهنين مهمة تنفيذها. ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكليس يوحي مراسيم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هولاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموسيس ، بلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيريوس » فناً اكثر استسهالاً وحذاقة ، ومع ذلك فانه سيد الجميع . ففصاحته عمل وحياة ومنطق وحميا . تقنع بقوتها وعمقها السيكولوجي وبراعتها السهلة التي لا تنم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر يلحمه ودمه ؟» ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا اللقب فيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وايم الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

نهاية الكلاسيكية اليونانية

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينس قد أسهم في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجّه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنتفع . قد حققت هذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تُهويها منها . فهل كان بامكانها أن تحافظ على قوّتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كان قدّر لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي ؟ انه لمن الجرأة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد آنئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فيهما ، داخل أثينا ، حيويتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمري ليس بالقليل ، ومن العبث التساؤل عمّا اذا كان يوازي البارثنون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .